

سيرة سيدة الشجر (12)

صورة النخل في «خريدة العجائب» وفريدة الغرائب» لابن الوردي^س

قبس محمد

Oms_1990@yahoo.com





احتوت المكتبة العربية العديد من المصنفات التي ضمت فصولها حديث مؤلفيها عن النخلة المباركة. ويأتي كتاب سراج الدين بن الوردى (691 هـ - 1291م / 861 هـ - 1457م) الموسوم بـ (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) ويقدم كتاب ابن الوردى جملة فوائد: جغرافية وتاريخية ونباتية وفلكية الخ والعجيب أنه متمرس في كل فرع يعرض اليه ويقدم مادة علمية مفيدة. وذكر في مقدمة كتابه إلى أنه: (رسالة لطيفة باهرة كالشرح في توضيح ما في هذه الدائرة تبين للنظر فيها أحوال الجبال والجهات والبحار والفلوات، وما اشتملت عليه من الممالك مستوعباً فيها لذلك إن شاء الله تعالى).

من السيرة

ابن الوردى هو العالم والجغرافي والأديب والقاضي والنحو، زين الدين أبو حفص عمر المظفر بن عمر بن أبي الفوارس الشهير بابن الوردى، ينتهي نسبه إلى الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد خاض في كل العلوم والفنون وأجاد وأبدع، وأخذ عن العلماء صدر الدين العثماني وفخر الدين الطائي وشهاب الدين الحنبلي وتقي الدين ابن تيمية وولي قضاء منبج بالشام وقد اخذ عنه جماعة من أهل العلم ومن هؤلاء التلاميذ: إبراهيم الحلبيوني وشرف الدين المعري وبدر الدين الحلبي ومحيي الدين الدمشقي وشمس الدين العبدلي.

وترك ابن الوردى مصنفات وافرة تنوعت في العلوم والآداب، منها كتبه: (أبكار الأفكار في مشكل الأخبار في الشعر والآداب، بهجة الحاوي، في الفقه، تنمة المختصر في أخبار البشر في التاريخ، تذكرة الغريب في النحو، الرسائل المهذبة في المسائل الملقبة، في الفرائض، رسالة السيف والقلم في الأدب، الشهاب الثاقب في التصوف، ديوان شعر، وهو صاحب اللامية الشهيرة لامية ابن الوردى، وله أيضاً كتابه المعروف خريدة العجائب وفريدة الغرائب»

في البلدان والمعادن. توفي ابن الوردى أيام طاعون حلب عام 749هـ.

كتاب مشهور

«خريدة العجائب وفريدة الغرائب» كتاب مشهور كانت للمستشرقين عناية به في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ألفه صاحبه تلبية لأمر نائب السلطنة الشريفة بالقلعة المنصورة، وجعله ابن الوردى شرحاً للخريطة التي رسمها له، بحيث يصعب

الفصل بين الكتاب والخريطة التي لا تزال مكتبة باريس محتفظة بأصلها، وأتبع المؤلف ذلك بذكر ماتضمنته الخريطة من أسماء البلدان، وعجائبها وآثارها مرتبة حسب الأقاليم المرسومة، ثم البحار والجزر والآبار والأنهار والعيون، والجبال والأحجار والنباتات والحيوانات.

وتضمن كتاب « خريدة العجائب وفريدة الغرائب» باباً للحيوان والنبات وعلى حروف

وتعقبه أخير الدين الزركلي مؤلف «الأعلام» بأن هذا هو الورودي: عمر بن عيسى، وليس الوردي. قال الزركلي: «وبهذا يظل الإشكال في نسبة خريدة العجائب إلى ابن الوردي»، وأفاد أنه رأى في الفاتيكان مخطوطة رقم 1098 عربي» مخطوطة يمانية حديثة، كتبها ابن المطهر الجرموزي سنة 1124هـ وعليها اسم المؤلف: عمر بن منصور بن محمد بن عمر الوردي السبكي».

صورة النخل في الخريدة

إن ما يهمننا من محتويات كتاب ابن الوردي «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، ما ذكره عن «النخل» حيث جاء ذكرها كالآتي: النخل هو أول شجرة استقرت على وجه الأرض، وهي شجرة مباركة لا توجد في كل مكان. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عماتكم النخل» وإنما سميت عمتما لأنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، ولأنها تشبه الإنسان من حيث استقامة قدها وطولها وامتياز ذكرها بين الإناث، واختصاصها باللقاح، ورائحة طلعها كرائحة المنى».

الطلع

ثم أشار ابن الوردي لطلع النخيل بقوله: «ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها، ولو قطع رأسها ماتت، ولو أصاب جمارها آفة هلكت. والجَمَّارُ من النخلة كالمخ من الإنسان، وعليها الليف كشعر الإنسان، وإذا تقاربت ذكورها وإناثها حملت حملاً كثيراً لأنها تستأنس بالمجاورة». وأضاف: «وإذا كانت ذكورها بين إناثها ألقتها بالريح، وربما قطع إلفها من الذكور فلا تحمل، لفرقه، وإذا دام شربها للماء العذب تغيرت، وإذا سقيت الماء المالح أو طرّح الملح في أصولها حسن ثمرها».

أمراض النخل

ثم تحدث عن الأمراض التي تعترى النخل وعلاجاتها فقال صاحب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، إن أمراضاً تعترض النخل

مؤلفه بالقول بأنه وضع دائرة على صورة شكل الأرض في الطول والعرض، بأقاليمها وجهاتها، وبلدانها، وصفاتها وعروضها وهيئاتها، وأقطارها وممالكها، وطرقها ومسالكها، ومفاوزها ومهالكها، وعامرها وغامرها، وجبالها ورمالها، وعجائبها وغرائبها، وموقع كل مملكة وإقليم من الأخرى. ثم يشرح بعد ذلك في تناول البلدان والأقطار والخلجان والبحار والجزائر والأنار. ويكرس فصلاً أخرى في خواص الأحجار ومنافعها وفي المعادن والجواهر وخواصها، وكذلك الأمر بالنسبة للنباتات والفواكه وخواصها. وينهي هذا القسم بالحيوانات والطيور وخواصها. لكنه لم يتوقف عند حدّ الأرض وخواصها بل يختم كتابه بذكر الملاحم وعلامات الساعة وظهور الفتن والحوادث.

نسبة الكتاب

ينسب معظم المتأخرين هذا الكتاب إلى ابن الوردي الشاعر ت 749هـ. وذهب محمد بن أبي شنب، ت 1930م في دائرة المعارف الإسلامية إلى أنّ مؤلف الكتاب رجل آخر، يدعى أيضاً ابن الوردي، ووفاته سنة 881هـ،

المعجم. ومن ميزاته: تسمية النباتات بأسمائها القديمة والحديثة، كقوله: ودم الأخوين هو العندم، والبقلة الحمراء هي الرجل، والحمص هو الصنبري، وحب الرشاد هو الحرف... وقد طبع كتاب سراج الدين بن الوردي «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» أول مرة في مدينة لوند السويدية سنة 1824م، مع ترجمة لاتينية بعناية هايلندر، ويقع في 300 صفحة، وطبع في مدينة أوسالا السويدية في مجلدين بعناية تورنبورغ ما بين سنة 1835 وسنة 1839م. وطبع في المطبعة الوهبية في القاهرة سنة 1292هـ/ 1880م، كما طبع الخريدة أيضاً في المطبعة الشرفية في القاهرة سنة 1300هـ/ 1882م، ثم سنة 1314هـ/ 1896م، ونشر «سيفريد فرويند» الفصل الخاص بأحوال يوم القيامة في «برسلاو» سنة 1853م، وأخيراً تمّ نشر كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» مُحققاً عن مكتبة الثقافة الدينية لسنة 2007م.

ويدخل كتاب ابن الوردي «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» في نطاق كتب الجغرافيا، ولكن بطريقة يتم التركيز فيها على العجائب . ويبدو لنا ذلك من خلال عنوانه. ويبدأ



منها ما زرعت جاءت نخله كلها ذكوراً، وإن نضعت النوى في الماء ثمانية أيام وزرعته جاء بسرّه كله محمراً؛ وإن نضعت النوى في بول البقر أياماً وجففته ثلاث مرات وزرعته جاءت كل نخلة تحمل حملاً قدر نخلتين، وإذا أخذت نوى البسر الأحمر وحشوته في ثمر الأصفر وزرعته جاء بسرّه أصفر، وكذلك بالعكس، وكذلك فلاحه النوى المتطاوّل والنوى المدور. وكيفية غرسه أن تجعل طرف النوى الغليظ مما يلي الأرض وموضع النقيير إلى جهة القبلة.

طلع مرتان بالسنة؟

ثم روى ابن الوردي حكاية جاء فيها: أن بعض الرؤساء أهدي له عذق واحد فيه بسرة حمراء وبسرة صفراء. وحكي أن قرية بنهر مقل كانت نخلها تخرج الطلع في السنة مرتين.

وحكي أن بالسكن من أعمال بغداد نخلة تخرج كل شهر طلعة واحدة على ممر السنين. وكان في بستان ابن الخشاب بمصر نخلة تحمل أعناقها، في كل عذق بسرة، نصفها أحمر ونصفها أصفر، والأعلى أحمر، والأسفل أصفر؛ والعذق الآخر بالعكس: الفوقاني أصفر والتحتاني أحمر وعن بعض ملوك الروم أنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قد بلغني أن بيلدك شجرة تخرج ثمرة كأنها آذان الحمير، ثم تشق عن أحسن من اللؤلؤ المنظوم، ثم تخضر فتكون كالزمرد، ثم تحمر وتضفر فتكون كشدور الذهب. وقطع الياقوت، ثم تينع فتكون كطيب الفالودج، ثم تيبس فتكون قوتاً وتدخر مؤونة، فله درها شجرة وإن صدق الخبر فهذه من شجر الجنة. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: صدقت رسلك، وإنها الشجرة التي ولد تحتها المسيح وقال: إني عبد الله فلا تدع مع الله إلهاً آخر.

سقوط الثمرة

من أمراض النخل عند ابن الوردي في كتابه «سقوط الثمرة بعد الحمل»، وعلاجه «أن يتخذ لها منطقة من الأسرب فتطوق به فلا تسقط



فأصبر عليها ولا تعجل وإن لم تثمر فأقطعها، فتثمر في تلك السنة وتحمل حملاً طائلاً». ومن أمراضها أيضاً: سقوط الثمرة بعد الحمل وعلاجه أن يتخذ لها منطقة من الأسرب فتطوق به فلا تسقط بعدها، أو يتخذ لها أوتاداً من خشب البلوط ويدفنها حولها في الأرض. ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت نوى تمر من نخلة واحدة وزرعت منها ألف نخلة، جاءت كل نخلة منها لا تشبه الأخرى. قال صاحب كتاب الفلاحة: إذا نضعت النوى في بول البغل وزرعت

مثل أمراض الإنسان، نحو: «الغم»، وعلاجها أن يشد بينها وبين معشوقها الذي مالت إليه بحبل أو يعلق عليها سعفة منه، أو يجعل فيها من طلعها. ومن أمراضها منع الحمل، وعلاجه أن تأخذ فأساً وتدنو منها وتقول لرجل معك: أنا أريد أن أقطع هذه النخلة لأنها منعت الحمل، فيقول ذلك الرجل: لا تفعل فإنها لا تحمل في هذه السنة، فتقول: لا بد من قطعها، وتضربها ثلاث ضربات بظهر الفأس، فيمسكها الآخر ويقول: بالله لا تفعل فإنها تثمر في هذه السنة

صفوان والراسخات

وختم المؤلف ابن الوردي في «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» بذكر ما وصف خالد بن صفوان النخل فقال: «هي الراسخات في الوحل، المُطعمات في المَحَل، الملقحات بالفحل، المُعينات كشهد النحل، تخرج أسفاطاً غِلاظاً وأوساطاً كأنها ملئت ورياطاً، ثم تشقُّ عن قضبان لُجين وعَسَجَد كالثدر المنصَّد، ثم تصير ذهباً أحمر بعد أن كانت في لون الزبرجد».

وذكر أن من خواص النخل عنده: أن مضغ خصوها يقطع رائحة الثوم، وكذلك رائحة الخمر. قال الشاعر:

كَأَنَّ النَّخِيلَ الْبَاسِقَاتِ وَقَدْ بَدَتْ

نَاظِرَهَا حُسْنًا قَبَابَ زَبْرَجِدٍ

وقد علقت من قلبها زينة لها

قناديل ياقوت بأمراس عسجد



أن قرية بنهر معقل - في مدينة البصرة جنوب العراق - كانت نخلة تخرج الطلع في السنة مرتين. وحكي أن بالسكن من أعمال بغداد نخلة تخرج كل شهر طلعة واحدة على مرّ السنين. وكان في بستان ابن الخشاب بمصر نخلة تحمل أذاقها في كل عذق بسرة، نصفها أحمر ونصفها أصفر، والأعلى أحمر، والأسفل أصفر، والعذق الآخر بالعكس، الفوقاني أصفر والتحتاني أحمر».

ومن حكايات الكتاب الأخرى: أن بعض ملوك الروم قد كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قد بلغني أن بيلدك شجرة تخرج ثمرة كأنها أذان الحمر، ثم تشق عن أحسن من اللؤلؤ المنظوم، ثم تخضّر وتصفر فتكون كشذور الذهب وقطع الياقوت، ثم تينع فتكون كطيب الفالودج، ثم تيبس فتكون قوتا وتدخر مؤونة، فلله درها شجرة وإن صدق الخبر فهذه من شجر الجنة». فكتب إليه الفاروق عمر رضي الله عنه: صدقت رسلك، وإنها الشجرة التي وُلِدَ تحتها المسيح، وقال: إنني عبد الله فلا تدع مع الله إلهاً آخر» ابن

بعدها، أو يتخذ لها أوتاداً من خشب البلوط ويدفنها حولها في الأرض».

زراعة النوى

أشار مؤلف الكتاب إلى عجيب أمر النخل ومنها: «أنك إذا أخذت نوى تمر من نخلة واحدة وزرعت منها ما زرعت جاءت نخله كلها ذكوراً، وإن نعتت النوى في الماء ثمانية أيام وزرعت جاء بسره كله مُحَمَّرًا؛ وإن نعتت النوى في بول البقر أياماً وجففته ثلاث مرّات وزرعته جاءت كل نخلة تحمل حملاً قدر نخلتين»، وأضاف ابن الوردي من عجائب النخل: «إذا أخذت نوى البسر الأحمر وحشوته في ثمر الأصفر وزرعته جاء بسره أصفر، وكذلك بالعكس، وكذلك فلاحه النوى المتناول والنوى المدور». وعرض لكيفية غرس النخل قائلاً: «أن تجعل طرف النوى الغليظ مما يلي الأرض وموضع التقير إلى جهة القبلة».

حمل عجيب غريب

ثم روى عدّة حكايات غريبة وعجيبة عن حمل النخل منها: «أن بعض الرؤساء أهدي له عذق واحد فيه بسرة حمراء وبسرة صفراء. وحكي